تلقّي التّراث البلاغيّ بين النهج التّاريخي والوصف اللسانيّ

أ.عمّار عثماني

جامعة وهران 1 -الجزائر

الملخص

يهدف هذا المقال التوقف عند طبيعة القراءة التي تمّ بها تلقيّ التراث البلاغي في العصر الحديث والمعاصر بغية استجلاء مناهجها ومعالمها.

ولم يكن تّلقيّ التراث البلاغي مقتصرا على التعريف به، وتغيير المقررات الدراسية بإدراج كتب تراثية جديدة، كما فعل محمد عبده عندما عاد إلى تعليم البلاغة بتدريس كتابي عبد القاهر الجرجاني، بل تغيّر تلقيّ التراث إلى محاولة تفسيره وتأويله وتجديده.

واتجه الباحثون في العصر الحديث إلى كتابة تاريخ للبلاغة العربية، وهي الكتابة التي اختلفت ملامحها والأسس التي انطلقت منها. ونرى أنّ تلقيّ التراث البلاغي مرّ بمرحلتين: الأولى: مرحلة السرد التاريخي، والثانية: مرحلة التحليل والتفسير.

الكلمات المفتاحية :

التلقّي- التراث البلاغي- المنهج التاريخي- القراءة اللسانية- مشروع- التيّسير- التفسير- السكّاكيّ- العمري- صمّود .

المقال:

كانت بداية الاهتمام بالتراث اللغوي العربي مرتبطة بحملة نابليون على مصر (1798-1801م)، وهي المرحلة التي بدأت فيها الثقافة العربية تنفتح على الثقافة الغربية، وساهمت في تحقيق تغيّرات جذرية لها علاقة بالجانب اللغوي.

ويرى رفاعة الطهطاوي أنّ المرحلة التاريخية التي عاشتها مصر مهدت لظهور الإحساس بأهمية الماضي الحضاري. وقد حفّز على ذلك تمكن جان فرانسوا(1790- 1832 م)، من فكّ رموز الحروف الهيروغليفية (المصرية القديمة)، حيث " فتح أمام المصريين الطريق لمعرفة عظمتهم الحضارية التي تبعث فيهم التعالي على الأتراك والاستيلاء على المماليك، بل واحتقارهم وازدرائهم "(1)

وتزايدت المفاخرة بالإرث الحضاري أيضا بعد تنامي الشعور القومي، حيث انصب الاهتمام على هذا الجانب لأهميته في وصل الحاضر بالماضي، وساد الاعتبار للذخيرة الروحية للأمة واستتباب الوعي القومي، والشعور بالجوانب الموحدة. فشكّلت هذه الأسس مرتكزات السياسة و الفكر والمجتمع . ويذهب زكي نجيب محمود إلى أنّ هذا الوضع دفع إلى تبني الإصلاح اللغوي، بحكم أنّ اللغة هي وعاء الحضارة ولأن ثورة التجديد تبدأ من اللغة وطرائق تدريسها واستخدامها (2)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

ولما كان الإصلاح اللغوي مرتبطا بالمسألة القومية، اجتهد لغويو هذه المرحلة في الاهتمام بلغتهم، والدفع بها إلى أن تكون معبرة عن روح العصر، وتستجيب لمقتضيات الحضارة الحديثة.

ويرى حافظ اسماعيلي أنّ البوادر الأولى للإصلاح اللغوي شملت المعجم؛ لأنّه " أحد الأسس المكينة التي يمكن أن تنطلق منها عملية الإصلاح، فقد حظي بعناية واهتمام كبيرين، من خلال الاهتمام بالجانب الجمالي للغة العربية، في محاولة جادة لتخليصها من رواسب عصر الانحطاط، والعودة بها إلى سالف عهدها، وهذا ينم عن إدراك عميق لدور اللغة الفاعل في حياة الأمة. ومن اللغويين الذين ركّزوا على هذا الجانب: أحمد فارس الشدياق(1804-1887م) وبطرس البستاني (1819-1883م) وإبراهيم اليازجي(1847-1906م) وأحمد الشرتوني (1849-1912م)" (3)

واهتم النهضويون بقضايا تعليم اللغة العربية، خصوصا بعد انتشار التعليم على نطاق واسع، من خلال البحث عن مناهج جديدة في التعليم تستجيب لحاجات المتعلمين. وظهرت العناية بهذه القضية في شكل " تيسير" تعلم النحو، بعد الاطلاع على طرائق التأليف عند الغربيين، كما هو الحال بالنسبة إلى رفاعة الطهطاوي (1801-1873م)، الذي ألّف " التحفة المكتبية" عام 1868 .

ويعلّق حلمي خليل عن كتاب الطهطاوي بأنّه ألّفه " على نمط مؤلفات الفرنسيين في النحو التي أعجب بها إعجابا أثناء بعثته إلى فرنسا فخرج فيها على طريقة معاصريه من علماء الأزهر في الشروح والحواشي والتعليقات والتقريرات، فجاء الكتاب بسيط العبارة، سهل العرض، ليس له متن أو شرح كما استخدم فيه لأول مرة الجداول الإيضاحية "(4)

وأخذ تلقيّ التراث اللغوي اتّجاها آخر مع البدايات الأولى للقرن العشرين، وتركّز الإصلاح في هذه المرحلة على نقد « النحو العربي»، في شكل ملاحظات جزئية، تطوّرت فيما بعد ذلك، خصوصا مع ظهور كتاب إبراهيم مصطفى « إحياء النحو» ، الذي أعرب فيه عن منهجه في تدريس النحو العربي، يقول فيما بيانه: " أطمع أن أغيّر منهج البحث النحوي للغة العربية، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة تقربهم من العربية، وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها... اتصلت بدراسة النحو في كل معاهده الذي يدرس فيها بمصر، وكان اتصالا طويلا وثيقا، ورأيت عارضة واحدة لا يكاد يختص لها معهد دون معهد، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة، هي التبرم بالنحو والضجر بقواعده وضيق الصدر بتحصيله "(5)

والإحياء الذي أراده مصطفى إبراهيم " ربما كان بمعنى من المعاني من حيث طرحه لقضية اللغة والنحو والدعوة إلى البحث فيها بعيدا عن الفلسفة والعلل المنطقية وكذا من حيث اكتشاف أوجه القصور في النظرية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

اللغوية التقليدية التي اكتسبت هيبة واحتراما بمرور الزمن، ولكنّ هذا الإحياء رغم هذه الدعوة الواضحة إلى إعادة النظر في درس العربية انتهى إلى الإبقاء على الجانب التعليمي وحده وإبرازه بغض النظر عن الأصول ومنهج البحث في الفقه، وهذا كله لا يدخل في باب التجديد الذي يقوم على أصول جديدة ومنهج جديد ونظرية جديدة "(6)

ورغم انتشار الثقافة اللسانية في المجتمع العالمي إلا أنّ التحديث الذي حمل لواءه بعض المفكرين في عصر النهضة لم يقد إلى التغيير المطلوب، فقد لاحظ إبراهيم مصطفى أنّ " بعض المتخصصين في علم العربية، والمهتمين بأمر هذه اللغة في بعض المجامع اللغوية، مازالوا ينظرون إلى هذا العلم نظرة الشك والارتياب; لأنّه علم أجنبي لم ينبت في أرضنا، أو هو لون من التغريب، إذا ما طبق على لغتنا، يحاول هدمها والقضاء عليها، بنظريات ومناهج لا تصلح لها، وإنّما كانت تصلح مثل هذه النظريات لغير العربية من اللغات الإنسانية الأخرى "(7)

وقد كانت الدراسة اللسانية بعيدة عن تناول المفكر العربي في عصر النهضة كما يذهب محمود سعران إلى القول بأنّ " هذه الدراسة في البلاد العربية لا تزال غريبة على جمهور المتخصصين في المسائل اللغوية، المنقطعين لها، والمنصرفين إليها "(8) والاهتمام بالبحث اللساني في تقويم التراث العربي غاب عن المؤسسات الجامعية، وهو ما يفهم من كلام تمام حسان في قوله: " حين كنت أتولى تدريس علم الأصوات اللغوية لطلبة السنة الثانية بكلية دار العلوم بالقاهرة- فيما بين عامي 1953و1959- كان الاتجاه العام بين أساتذة الكلية في ذلك الحين هو إلى التشكيك في قيمة الدراسات اللغوية الحديثة، ولاسيما عند تطبيق منهجها وأفكارها على دراسة اللغة الفصحى"(9) غير أنّ هذه الحالة التي عرفها الدرس اللغوي لم تستقر عليها، حتى بدأ تنامي تلقي اللسانيات في الثقافة العربية، و أوعز مصطفى غلفان أسباب ذلك إلى : (10)

1- تنامي إرسال البعثات الطلابية إلى الجامعات الغربية، مما أتاح التعرف إلى مبادئ اللسانيات وفروعها بشكل أدقّ.

2- القيام بدراسات وأطروحات جامعية من قبل طلاب عرب في جامعات أوروبا وأميركا، وقد تناولت تلك الدراسات الواقع اللغوي العربي من وجهة نظر مختلف المدارس اللسانية الغربية.

3- إنشاء كراسي خاصة بعلم اللغة .

4- ظهور كتابات لغوية تعرف بعلم اللغة الحديث وبمبادئه العامة.

وساهم هذا الإجراء في التعرّف على الأبحاث اللسانية في تنامي الدراسات النحوية الحديثة، التي لجأ أصحابها إلى تأصيل النظريات الحديثة في التراث، في حين بقي هذا الاهتمام متأخرا في الدراسات البلاغية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

و كان تلقيّ التراث البلاغي متأخرا مقارنة بالتراث النحوي، الذي شكّل اهتمام المفكرين ورجال الإصلاح منذ عصر النهضة، غير أنّ ذلك لم يترك فيما خلفه العلماء من تراث مجردا في ماديته، بل أخذ حقّه بنصيب وافر من مجهود المهتمّين بالتّراث العربي، فمنذ القرن التاسع عشر بدأت حركة تأليف نشيطة تسارع نسقها شيئا فشيئا حتى أصبح من الصعب الإلمام بكل ما نشر في علم البلاغة وأبحاثه.

وبعد الانفتاح على الثقافة الغربية، بدأ النقاش محتدما على الطريقة المثلى في قراءة التراث البلاغيّ واللغويّ، إذ اختلفت الطرائق وتعددت الاتجاهات، والمرجعيات، بين رأي يحاول صاحبه أن يتعصب للتراث البلاغي وما كتبه الأقدمون، وآخر يحاول تقديم صورة جديدة للبلاغة العربية بمؤشرات حداثية.

وشاع مصطلح« القراءة » في كتابات المحدثين ، ويرى جابر عصفور" أنّ السبب وراء شيوع مصطلح القراءة بمثل هذا التصوّر في ثقافتنا العربة المعاصرة، في السنوات الأخيرة، راجع إلى الرغبة في تأكيد الطابع التفسيري (التأويلي) لكل فعل من أفعال القراءة في مختلف المجالات الثقافية من جانب، وتأكيد الدور الذي يقوم به القارئ في عملية القراءة من جانب ثان، وتأكيد الطبيعة المعرفية التي تصل القارئ بالمقروء في عملية إنتاج معرفة جديدة من جانب ثالث "(11)؛ ولم يكن الاختلاف حاصلا في قيمة التراث ووزنه، بل في الكيفية التي يتمّ بها هذا التثمين، وطابع المنهج المستعمل، بين عربيّ كما وُلد في بيئته، أو غربي حداثيّ، إذ يرى محمد مندور أنّ في الكتب العربية القديمة كنوزا نستطيع إذا عدنا إليها وتناولناها بعقولنا المثقفة أوروبية حديثة أن نستخرج منها الكثير من الحقائق التي لا تزال قائمة حتى اليوم (12). والأخذ بالمنجزات الحداثية في قراءة التراث البلاغي شكل اهتمام الدارسين في العصر الحديث، لما وجدوا أنّ هذا النوع من الدراسات له أهميته في إبراز فضل التراث، إذ يقول أحد الباحثين: " ولعليّ لا أكون مبالغا بل ربما أكون أكثر صدقا ووضوحا إذا زعمت أنّ إفادتنا من المعارف المستعارة من الآخر على زيادة وعينا بتراثنا بوضعه في سياق معرفي مرفود بخبرة الآخر الحداثية، أجدى بكثير من محاولات التقمص التي يلتقط فيها كثير من الباحثين جذاذات متطايرة من المقولات المستعارة "(13).

ويبرّر عبد السلام المسدي سبب الأخذ بأدوات حداثية لقراءة التراث البلاغي، وعن شرعية الاستعادة للتراث بأنّ ذلك راجع إلى أنّ القراءة في حقيقة أمرها هي " تفكيك لرسالة قائمة بنفسها، وما التراث إلا موجود لغوي قائم الذات باعتباره كتلة من الدوال المتراصفة، وإعادة قراءته هي تجديد لتفكيك رسالته عبر الزمن وهي بذلك إثبات لديمومة وجوده "(14). وتعدّد القراءة للنص البلاغي ليس مشكلة بقدر ما هو حالة طبيعية، لأنّ التعدّد سببه تعاقب المتقبلين للرسالة والمفككين لبنائها عبر محور الزمن والتاريخ، وهو المخرج الذي يراه المسدي متاحا لتحقيق الشرعية للمقولة اللسانية في قراءة التراث العربي(15).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

والنّص التراثي في حقيقة أمره يَملك حضورين حضور (هناك) في تاريخه الخاص، في القرن الثالث أو الرابع أو الخامس للهجرة، حين كتب ابن المعتز أو قدامة بن جعفر أو عبد القاهر الجرجاني في علاقات تاريخية محددة، في شروط إنتاج معرفة معينة، وحضور (هنا) في تاريخنا الخاص، في القرن الخامس عشر للهجرة (16)

إنّ النظر في مختلف القراءات التي قدّمها أصحابها بشأنّ البحث عمّ هو موجود في التراث البلاغي يمكن أن نقسّمها إلى مرحلتين: الأولى، اهتم أصحابها بالسرد التاريخي وتلخيص محتويات الكتب، والثانية: هي مرحلة الكتابة من منظور حداثي لساني.

أولا: الاتجاه التاريخي في تلقيّ التراث البلاغي:

اقتصرت مهمة الدارسين في العصر الحديث التعريف بالتراث البلاغي، من خلال كتابة تاريخه، حيث كان همّ الطلاب في تلك الفترة وضع الباحثين كتبا، تجمع مراحل تطور هذا العلم، وهو ما دفع أحمد مصطفى المراغي إلى تحقيق ذلك من خلال عمله الموسوم بـ « تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها » الذي صدر سنة 1950، وتهدف كتاباته إلى شرح الأطوار التي مرّت بها البلاغة العربية منذ بدء التصنيف، حين كانت بحوثا مبعثرة في كتب النقد والموازنات و إعجاز القرآن إلى أن صارت كيانا عند عبد القاهر الجرجاني.

ويذكر المراغي أ نّ سبب كتابة تاريخ البلاغة هو أن " ترشد الناظر فيها إلى ما طرأ من التحول في اتجاه أبحاث المؤلفين وتوفراهم على خدمة الكتب دون خدمة الفن، مما كان مدعاة لوقوف الحركة الفكرية في مسائل العلم الحقيقية"(17).

ولعل هذا الهدف يوضح أن تلقي التراث كان بوعي حقيقة البلاغة في العصر الحديث التي وصلت مسائلها إلى التعقيد والجفاف، لكن دون تفسير لهذه المشكلة أو البحث عن حلول لها، مما جعل التلقي تاريخيا فحسب، وكأنّ العمل تأريخي لهذا العلم.

ومن الدراسات الرائدة في تلقي هذا التراث البلاغي من خلال الكتابة التاريخية، كتاب شوقي ضيف: «البلاغة تطور وتاريخ »، الذي يعدّ بحقّ أهم الأعمال التي فتحت الباب أمام الباحثين للنهوض بهذا التراث من خلال التعريف به وكتابة تاريخه، وتعدى الأمر إلى تفسيره وتأويله.

ولم يكن العمل الذي قدّمه شوقي ضيف سردا تاريخيا فحسب، بل حاول بوعي أن يبحث عن حلقة وصل بين مرحلة تاريخية وأخرى، وأن يربط بين الجانب البلاغي والجانب الأدبي، يقول فيما بيانه: " ولم تكن غايتي أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب، بل أيضا أن أصوّر الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورهما حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف، وأن أرسم في تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل بلاغي وسابقه ولاحقه

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

"(18) ص 6. والملاحظ أنّ كتاب شوقي ضيف طبع عليه الجانب التاريخي، فهو يصنف ضمن المرحلة الأولى من تلقيّ التراث البلاغي في العصر الحديث، حاول من خلاله أن يكتب تاريخ هذا العلم، باستثناء بعض الدراسات منها دراسة مسألة التأثير اليوناني في البلاغة العربية وموضوعات أخرى.

ولما كان موضوعنا يدور حول الكيفية التي تمّ التلقي بها التراث البلاغي بشموليته، فإنّنا رفعنا الحديث عن بعض الدراسات التي كان هدفه دراسة مشكلات البحث البلاغي في العصر الحديث، سواء من خلال جزئية التأثير الأرسطي في البلاغة كما نجد ذلك في عمل طه حسين عندما شمل دراسته التفكير البلاغي العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني.

ومن الدراسات التي يمكن إدراجها في هذا النوع من التلقّي، الدراسة التي قدّمها بدوي طبانة، ونشرها سنة 1956م،حاول من خلالها دراسة تطور الفكرة البلاغية عند العرب، والوقوف على مناهجها ومصادرها الكبرى. وهدف الباحث في دراسته إلى تتبع الحقائق البلاغية في مصادرها الأصلية، معتمدا على الفحص والاستقراء، مقيّما لها، بالكشف عن مالها، وما عليها، مبيّنا مبعثها وجدواها، وفاحصا عن منهجها وفلسفتها، وعن صوابها وخطئها.(19)

والملاحظ أنّ بدوي طبانة حاول أن يبحث عن مفهوم للبيان العربي عند واضع اللغة، وكيف تطوّر مفهومه في أذهان العلماء، حتى استقرّ لونا من ألوان التفكير العربي. والمطلع على كتاب بدوي طبانة « البيان العربي» يرى أنّ المؤلف اعتمد على المنهج التاريخي في توزيع المصنفات البلاغية بحسب اتجاهاتها المختلفة.

ومن الكتابات التي نظنّها أن قدّمت كتابة جديدة لتاريخ البلاغة العربية، العمل الذي قدّمه علي عشري الزايد، المسوم بـ " البلاغة العربية. تاريخها. مصادرها. مناهجها " الذي نشره سنة 1977 . وهي كتابة نراها أنّها ابتعدت عن تلخيص الكتب كما هو ملاحظ في الكتب التي سبقتها، ومنها كتاب شوقي ضيف، و بدوي طبانة.

وعمل عشري الزايد إلى تناول التأليف البلاغي على مستويين: الأول تاريخي، والثاني فنّي، وهو منهج يقوم على " تتبع هذا التطور في مراحله الأساسية منذ بدأت البلاغة العربية أفكارًا وملاحظات عامة متناثرة (...) أما المستوى الثاني فهو مستوى فني يقوم على رصد الجانب الفني في مسار التأليف البلاغي من خلال استخلاص معالم مناهج البحث وطرق التناول العلمي التي عرفها التأليف في البلاغة العربية"(20)

والملاحظ في كتاب الرجل أنّ همّه كان مشغولا بالبحث عن منهج التأليف البلاغي عند العرب، وخلص إلى أنّ هذا الدرس عرف في تطوره أربعة مناهج، وهي: المنهج التجميعي (آثار البيان والتبيين)، والمنهج

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

الانطباعي(الكامل للمبرد) ، والمنهج التحليلي الفني (كتابات عبد القاهر الجرجاني)، والمنهج التقنيني المنطقي (مفتاح العلوم للسكاكي).

وتوصل الزايد إلى القول بأنّ المنهج العلمي الدقيق لم يعرفه البحث البلاغي عند العرب " إلا في المرحلة الثالثة، مرحلة استقرار البلاغة واستقلالها، حيث تقاسم المؤلفات البلاغية في هذه المرحلة منهجان متقابلان من مناهج البحث البلاغي، يبرز أولهما في مؤلفات عبد القاهر الجرجاني ومن نهج نهجه، بينما يتضح الثاني في مؤلفات السكاكي ومدرسته البلاغية "(21).

والحقّ أنّ فكرة تصنيف الكتابات البلاغية وفق مناهج معينة استلهمها باحثون آخرون بعد علي عشري الزايد، إذ نرى أحمد مطلوب اشتغل على فكرة " المناهج" ، وبحث في الدراسات البلاغية في بيئاتها المعرفية المختلفة، وتشمل: (المفسرين والأصوليين، واللغويين والنحويين، والفلاسفة والمتكلمين والشراح والملخصين، والبديعين والبديعيات، وأخيرا تناول البلاغة عند المحدثين بالعرض والنقد)(22). وتكمن أهمية دراسة أحمد مطلوب أنّها عَرّفت القارئ العربي المتخصص بمختلف البيئات التي ظهرت فيها الكتابة البلاغية، وعلاقة البلاغة بالعلوم الأخرى.

وتأثّر بهذا النوع من قراءة التراث، الباحث عبد السلام عبد الحفيظ، في كتابه الموسوم بـ " مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية)، الذي صدر في القاهرة سنة 1978، تناول فيه المؤلف مباحث البلاغة في الدراسات غير البلاغية، كاللغوية العامة والنحوية، وفي الدراسات القرآنية، ككتب مجاز القرآن وإعجازه، وفي الدراسات النقدية والأدبية.

وتجلّى التأثير بكتاب علي عشري الزايد عند عماد البخيتاوي، في البحث الذي قدّمه في شكل أطروحة جامعية، تحت عنوان « مناهج البحث البلاغي عند العرب، دراسة في الأُسُس المعرفية»، الذي نشرته دار الكتب العلمية ببيروت، سنة 2013، والواضح فيه أنّ الباحث استفاد كثيرا مما قُدّم من أبحاث بلاغية وفق دراسة لسانية، غير أنّه بقي مقتنعا بفكرة " المناهج" التي ظهرت عنوانا لأول مرة عند علي عشري الزايد، إذ قُسم بحثه على أربعة فصول، عرّفت عناوينها طبيعة المنهج المستعمل في كل مرحلة تاريخية من تطور الفكرة البلاغية عند العرب.

وحاول الباحث تقديم " مقاربة جديدة عبر الربط بين مناهج البحث البلاغي والأسس المعرفية للبلاغة العربية، والوقوف على أثر الأساس في تشكيل المنهج أو في دفع المؤلف لاختيار منهج بعينه دون سواه "(23)

غير أنّ اعتماد هذا المنهج في تقويم التراث لا يأتي أكله، وجملة هذه القراءات التي سنّها عشري الزايد وقبله بدوي طبانه وشوقي ضيق،يصدق عليها قول الباحث: " أكثر القراءات الحديثة للتراث النقدي تقف عند

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

حدود العرض والتفسير ولا تكاد تتجاوز ذلك إلا لتصل إلى قدر من التحليل والربط والتعليل، وكأنّ الهدف من هذه القراءات ينحصر في إعادة تشكيل التراث وتصنيفه، وبذلك تدخل هذه القراءات في دائرة تاريخ النقد الأدبي عند العرب "(24).

والحقّ أنّ الدارسين المحدثين الذين اتّسمت كتابتهم بالسرد التاريخي في تلقيّ هذا التراث كثيرة، ولا يسمح المجال بعرضها كلّها، لكنّها تعتبر بحقّ دراسات قيّمة ، نجحت في تقديم تاريخ البلاغة إلى القارئ العربي المتخصص، وفتحت المجال للباحثين في تقديم دراسات حول مرحلة زمنية معنية من تطور التفكير البلاغي، كما فعل ذلك أحمد مطلوب في الدراسة التي قدّمها حول السكاكي، إلى جانب دراسات أخرى حاولت أن تنير بعض النقاط التي لم يتم طرقها، في موضوعات متعددة، مثل موضوع الصورة (الصورة الأدبية لمصطفى ناصف)، و (الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي لجابر عصفور) و... إلخ.

ثانيا: قراءة لسانية للتراث البلاغي

يعود الفضل في انتشار المنهج البنيوي في الدراسات اللغوية عند العرب في العصر الحديث إلى المحاولات الأولى التي شكّلت مدرسة بنيوية لغوية في بداية الستينات من القرن العشرين بفضل جهود عدد من الباحثين أمثال إبراهيم أنيس،و تمام حسان، وعبد الرحمن أيوب، وكمال بشر، و أحمد مختار عمر، وعبد الصبور شاهين. وهي الدراسات اللغوية التي لم تقف عند مبادئ دي سوسير، ولكن تطورت تطورا ملحوظا بعد ظهور النظرية التحويلية التوليدية لتشومسكي(25). بدأ البحث عن قراءة جديدة للتراث البلاغي وفق مقولات الدرس اللساني متأخرا مقارنة مع القراءة الممارسة في التراث النحوي العربي. وهذا النوع من القراءة يرتكز على منهجية بنيوية لسانية، وهي منهجية تتعارض مع المناهج الخارجية التي لحظنا بخصوصها سيطرة المنهج التاريخي عند من حاولوا قراءة البلاغة القديمة أمثال شوقي ضيف، وبدوي طبانة، وعشري الزايد ومن سلك هذا النهج.

أمّا هذا النوع من القراءة فهو يأخذ من اللسانيات ويقوم على نقد وتقويم للتراث البلاغي، ويأخذ شكل النقد البنيوي الذي " يتركز في دراسة الأدب باعتباره ظاهرة لغوية قائمة في لحظة معينة تمثل نظاما شاملا، والأعمال الأدبية تصبح حينئذ أبنية كلية ذات نظم، وتحليلها يعني إدراك علائقها الداخلية، ودرجة ترابطها والعناصر المنهجية فيها وتركيبها بهذا النمط الذي تؤدي به وظائفها الجمالية المتعددة "(26).

وتكمن أهمية هذه القراءة أنّها الأصح في كونها تسمح بالعودة إلى التراث اللغوي، من أجل الوقوف على ما يتضمنه هذا التراث من آراء متطورة، وهذا من الأمور الهامة، التي من شأنها أن تلقى على المواضع العديدة التي يلتقي فيها هذا التراث مع أحدث ما توصل إليه البحث اللغوي.(27) .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

والاهتمام بتقديم قراءة لسانية للنص البلاغي العربي القديم جاء بعد العمل الذي قدّمه رولان بارت في كتابه المعنون بـ « قراءة جديدة للبلاغة القديمة»، وهو الكتاب الذي ترجمه إلى العربية عمر أوكان، وقال عن البلاغة الغربية بشأنه أنّها أصبحت " تكتسب الساحة بقوة أكبر مما كانت عليه في عصرها الذهبي (اليوناني والروماني)، إلى درجة صارت تبدو معها مثل موضة (أو تعبير عن الحداثة)"(28)

والفضل في هذا التطوّر الذي صاحب الدرس البلاغي في الحضارة الغربية يرجع إلى محاولات مجموعة من الباحثين أمثال: فاليري (في فرنسا)، ريتشاردز وأوغدن (في ألمانيا)، وبعد ذلك توالت التأليفات، وذلك نتيجة التطور الذي عرفته بعض الفروع المعرفية المجاورة لحقل البلاغة، وذلك مثل اللسانيات، والسميائيات والتداوليات، والشعريات، مما أسهم في ظهور أسماء لامعة: شارل بيرلمان، ورولان بارت، وجون كوهن، وبول ريكور... إلخ.

والمعالجة البنيوية للبلاغة القديمة جعلت رولان بارت يعيد النظر في الإرث البلاغي، ويعمل على تقديم تصور جديد له، يقوم على إبراز بلاغة الصورة، ويغير في مقولات التحليل البلاغي، ويعيد تقسيم الوجوه البلاغية وفق نمط بنيوي.

وهذا النوع من القراءة فتح المجال أمام الباحثين العرب للنظر من جديد في التراث البلاغي وفق مقولات علم اللغة الحديث بغية البحث عن علمية البلاغة لتكون مشاركة في صناعة أدبية الأدب، إذ ظهرت بعد ذلك بعض المحاولات التي حاول أصحابها الوصول إلى تقديم قراءة جديدة للبلاغة العربية. على غرار محاولات حمّادي صمود، ومحمد العمري، ومحمد عبد المطلب.

واقتصرنا على الإشارة إلى هذه النماذج لأهميتها، ومنهج دراستها، حيث تعاملت مع التراث البلاغي في شموليته. في حين أنّ الدراسات الأخرى التي قرأت البلاغة العربية وفق نظرة جزئية فهي كثيرة ومتعددة، إذ يصعب الإحاطة بها . ونقتصر في هذا المقال على مشروعين اثنين يندرجان ضمن هذا النوع من القراءة، ونخص القول مشروع حمّادي صمّود، ومشروع محمد العمري في قراءتهما للتراث البلاغي، وسببا في ذلك أنّ الدراستين من أجدى الأعمال التي حاولت أن تفسّر وتؤوّل التراث البلاغي في كليته، وفق مقتضيات الدراسة اللسانية، فكان عملهما من وجهة نظرنا واعيا بمفهوم القراءة، ولو أنّ النهج يمتد أيضا إلى محاولة محمد عبد المطلب في كتابه: (البلاغة العربية، قراءة أخرى)، غير أنّ هذه المحاولة لم تأبه إلى كتابة التاريخ، بقدر ما كانت تحاول تفسير القواعد البلاغية من وجهة النظرية التوليدية والتحويلية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

وهذا لا يعني أنّ القراءة اللسانية لم يعرفها باحثون آخرون في الوطن العربي، إلاّ أنّنا اكتفينا ما يسير مع خطة هذا المقال، الذي يحاول أن يقف عند طبيعة القراءة الجديدة للتراث البلاغي، وكيفية التلقيّ في مراحله بدء من مرحلة التمهيد و النشأة.

1- قراءة حمّادي صمّود للتراث البلاغي

ولعل من القراءات المهمة التي حاولت أن تستنطق النصّ البلاغي القديم، قراءة حمّادي صمود، في ما يسمى بـ (مشروع قراءة)، وهي في الأصل أطروحة جامعية، انتهى من إنجازها سنة 1980، وصدرت ضمن منشورات الجامعة التونسية سنة 1981 ، بعنوان: « التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)».

والمعلوم تاريخيا أنّ مشروع حمّادي صمّود جاء في فترة طبع فيها المنهج السيوسيولوجي على الدراسات الأدبية في المغرب العربي، الذي صار يتحول تدريجيا نحو تبني القراءة البنيوية ذات الطابع اللساني والشكلاني.

وتكون هذه القراءة غير بعيدة تاريخيا عن حركة إعادة كتابة تاريخ البلاغة الغربية، التي انطلقت في الستينات مع رولان بارث، وجان كوهين.

وجاء هذا العمل بعد القصور الذي صاحب مشروع تلقي التراث البلاغي في العصر الحديث، إذ دفع ذلك ثلّة من الباحثين العرب إلى معاودة قراءة هذا التراث في شكل مشروع، همّه إيجاد حلول لنقص المسجل في القراءات الأولى، التي يعلّق عليها صمود بالقول: " هذه الجهود لا تخلو، على أهميّتها، من النّقص، فالآثار التي تروم الإلمام بمختلف مراحل البلاغة نشأة وتطورا واكتمالا قليلة، وما اتّجه منها هذه الوجهة باشر المسألة من زاوية تاريخية- حداثيّة أضعفت جانب التأليف والاستنتاج، كما أنّها لم تعتن عناية كافية بالأسس التي يقوم عليها التفكير في جمالية اللّغة عند العرب، فجاء جلّها تاريخا للتأليف البلاغي لا للبلاغة ولا يخفى الفرق بين الوجهتين"(29). وسبب ثورة حمّادي صمود على التأليف البلاغي في العصر الحديث، أنّها عجزت هذه المؤلفات في " إقحام البلاغة في حقل العلوم الأدبية ولم تستطع أن تقنع بفعاليتها في ممارسة الأدب ونقده فتعودَ إلى مكانتها السّالفة باعتبارها نظرية في فنّ القول تولّدت عن ممارسة النص من جهة بنيته اللّغوية"(30)

وإذا كان الدارسون للنحو العربي قد حاولوا تسييره انطلاقا من الإطلالة على صورة العلم في الحضارة الأخرى، فإنّ غياب جدلية التراث والحداثة في المؤلفات البلاغية كان سببا في قصورها، في ظلّ التعالي على المكتسبات المنهجية الجديدة، وما أظهرته التيارات النقدية الحديثة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

ويأتي مشروع حمّادي صمّود لإعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات اللسانية، الذي حرص فيه " على مباشرة التّراث من منطق التفاعل بينه وبين الحداثة قصد فهمه في ذاته واستجلاء أبعاد النظرية الأدبية التي يتضمّنها، ثم لمحاصرة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها"(31)

ويقول الباحث عن المدونة التي درسها: " يمتد عملنا على ستة قرون وهو إطار يحيط ببداية التفكير البلاغي وبأقصى ما وصل إليه من نُضج واكتمال، كما نوّعنا المصادر التي استقينا منها مادّتنا فلم نقتصر على المؤلفات التي اشتهرت بمنزعها البلاغي الصّرف وحاولنا الاستفادة من كتب التّراث الأخرى التي تناولت ظاهرة اللّغة من زوايا مختلفة ومن ثمّ تضمّنت آراء بلاغية يُثري جمعها والتنسيق بينها الموضوعَ " (32)

وكما هو ملاحظ في هذا المشروع أنّ حمّادي صمّود اختار الحدث الجاحظي في البلاغة مرجعا في كتابة تاريخ هذا العلم وفق قراءة لسانية، إذ قسّم مشروعه إلى ثلاثة أقسام يحتل منها الجاحظ المركز: ما قبل الجاحظ، الحدث الجاحظي، وما بعد الجاحظ .

وصورة هذه القراءة أنّها ناقشت أفكار البلاغيين في جملة من المقولات اللسانية التي جاء بها العلم الحديث، ويبدو أنّ الرجل كسب هذه الثقافة اللسانية جيّدا، وحاول أن يقدّم قراءة جديدة لتاريخ البلاغة العربية من منطلق التفاعل مع النصوص اللغوية، والبحث عن أدبية البلاغة التي حمل مشروعها أقلام معاصريه، وقبلهم أحمد الشايب وأمين الخولي.

وحاول صمود أن يبحث عن تجليات المقولات اللسانية في الحدث الجاحظي، الذي تكلم فيه على أنواع الدلالات، والعلامة اللغوية، و ثنائية (المقام/ الحال)، و(اللغة / الكلام) وهي موضوعات أظهرتها اللسانيات في العصر الحديث منذ كتاب دي سوسير.(33)

2 – قراءة محمد العمري:

ومن الدراسات الهامة التي تبنت الثقافة اللسانية لإعادة قراءة التراث البلاغي، محاولة محمد العمري الموسومة بـ « البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها » وهو الكتاب الذي انتهى صاحبه من تبيضه عام 1997، وطبع لأول مرة ضمن منشورات إفريقيا الشرق عام 1999.

واستفاد محمد العمري من منهج حمّادي صمّود في قراءة البلاغة العربية، وقدّم قبل هذا الكتاب الذي يعتبر أساس منهج الرجل في تلقّي التراث أعمالا أخرى، نجملها في الشكل التالي:

- تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية (الكثافة، الفضاء، التفاعل)، الدار العالمية، دار البيضاء، 1990 .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة العربية، منشورات سال، الدار البيضاء، 1991.

- اتجاهات التوزان الصوتي في الشعر العربي القديم، مساهمة تطبيقية في سبيل كتابة تاريخ للأشكال، منشورات سال، منشورات الدار البيضاء، 1989 .

- في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1986 .

واخترنا للنظر في طبيعة منهج القراءة الثانية للبلاغة القديمة كتابه " البلاغة العربية أصولها وامتداداتها" باعتبار أنّ هذا الكتاب يعتبر عصارة جهد الرجل مع البلاغة، مثلما نلمس ذلك في مدخل الكتاب: " لقد قادني البحث في موقع الموازنات الصوتية من الرؤية البلاغية في عمل سابق مطبوع إلى تكوين تصور عام عن مسارات البلاغة العربية وخلفياتها الفكرية والأيديولوجية، كما قادني إلى اكتشاف الفروق بين المشاريع والمنجزات وما يؤدي إليه ذلك من تضارب بين منطوق نصوص من المؤلّف البلاغي الواحد "(34)

وأخذت قراءة العمري طابع اللساني المحض، خصوصا ما تعلق بنظرية جمالية التلقيّ، التي أفادته في تحقيق نتائج هامة، يقول فيما بيانه: " ولا شك أنّ للمعالجة البنيوية اللسانية، جدوى كبيرة في استخراج الأنساق وتفسير الفعالية، ولذلك حاولنا استثمارها إلى أقصى حد ممكن، غير أنّنا حاولنا أن نستغل بعض مقترحات جمالية التلقي في بعدها التاريخي"(35). ويعتبر عمل العمري مكملا للأعمال التي تبنت تقديم قراءة لسانية للتراث البلاغي في شموليته، إذ أنّ الرجل لم يقص مرحلة من تطور الفكرة البلاغية عند العرب، وهي قراءة " تركيبية تعتمد النظرية الشمولية، تفهم السابق من اللاحق واللاحق من السابق، ولكي تكون مثمرة ينبغي أن تتحول إلى مستوى الهم أو الانشغال الموجه الذي يفسح المجال للتحليل والتأريخ لسد الفجوات دون أن يكون الخطاب الحديث عائقا يسد الطريق بترسانة من العتاد النظري الذي يُعرقل السير بدلا من أن يَفتحه "(36)

والملاحظ في هذه القراءة أنّها كانت واعية بقضايا البحث البلاغي، سواء ما تعلّق بالتأثير الأرسطي، أو مسألة مشروع الجاحظ البلاغي، إذ خلص المؤلف إلى أنّ " الفلاسفة العرب لم يكونوا مشغولين بالتطابق مع أرسطو، وأنّه لا جدوى من هذا التطابق "(37) .

وأضافت محاولتا حمّادي صمّود ومحمد العمري الكثير في الدراسات البلاغية المعاصرة، إذ فتحت المجال لتقديم قراءة معاصرة للتراث البلاغي، تساير مع آخر المستجدات في الأبحاث اللسانية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

وفتحت الدراسة اللسانية للتراث البلاغي أمام الباحثين للنظر في جملة من القضايا التي كانت تنقد فيها البلاغة العربية، سواء ما تعلق بالمعيارية، أو الشكل الذي وصلت إليه صورة الدرس البلاغي، حيث أثّر حمّادي الصمّود في باحثين آخرين، عملوا على إعادة قراءة التراث من خلال الاستفادة من التطوّر الحاصل في الأبحاث اللسانية، كما فعل صابر الحباشة الذي أعاد قراءة مرحلة الشروح والحواشي من تاريخ البلاغة، ووصل إلى أنّ هذه المرحلة ظلمت عند الباحثين الذين كتبوا تاريخ هذا العلم، والمقصود في ذلك كتاب المرحلة الأولى من تلقيّ هذا التراث. لما وجد أنّ الكثير من المعطيات التي وصلت إليها التداولية، تمّ التطرق إليها من طرف أصحاب الحواشي والشروح.

ولا شك أنّ أعمال محمد العمري ألقت بظلالها على الباحثين في الوطن العربي، في الاهتمام ببلاغة النصوص النثرية، التي كانت إلى زمن قريب خارج مجال البلاغة، وظهر ذلك في العمل الجماعي الذي يقدمه محمد مشبال مع مجوعة من الباحثين المغاربة، كان آخرها البحث الذي قدّم هو بلاغة النص النثري، عندما تمّ استقراء وتأويل نصوص تمتد إلى القرن الثاني والثالث الهجريين من خلال المقاربة التداولية والحجاجية .

خاتمة:

ويمكن أن نجمل النقاط التي توصل إليها هذا المقال في الشكل التالي:

- تلقيّ البحث البلاغي في العصر الحديث اقتصر في بداياته على التعريف برجال البلاغة كما هو ملاحظ في كتاب أحمد مصطفى المراغي.
- اتجه التلقيّ إلى محاولة تصنيف مراحل تطور الفكرة البلاغية عند العرب من خلال تصنيف المؤلفات ضمن مراحل: النشأة، ثم مرحلة الدراسات المنهجية، ثمّ مرحلة التطور والنضج، ثم مرحلة التقنين لمسائل العلم، وأخيرا مرحلة الجمود والتعقيد.
- كان تلقيّ التراث واعيا، في ظلّ اتجاه الباحثين إلى معرفة أسس المنهج المتبع في المؤلفات البلاغية (علي عشري الزايد ومن جاء بعده).
- اتّسمت المرحلة الأولى من تلقيّ البلاغة العربية بالسرد التاريخي، ولم يتعد مجالها تلخيص محتويات الكتب، ثمّ تطورت العملية إلى معرفة المناهج المتبعة في تناول المسائل البلاغية.
- تعد المرحلة الأولى من تلقي التراث البلاغي وكتابة تاريخه بمثابة التمهيد لمرحلة أخرى، تبنت التأويل في الكتابة التاريخية للبلاغة العربية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

- ساهمت الأبحاث اللسانية في تغيير طبيعة التلقيّ للتراث البلاغي، فتعدى مرحلة السرد التاريخي إلى ما يسمى بمرحلة التفسير والتأويل لهذا الإرث البلاغي.
- فتحت محاولة حمّادي صمود البحث أمام الدارسين لتغيير نمط قراءة التراث البلاغي وفق النظريات اللسانية في مراحل تطورها من البنيوية اللسانية إلى التداولية الحجاجية.

الهوامش:

(1) رفاعة رافع الطهطاوي: الأعمال الكاملة، الجزء الأول: " التمدن والحضارة والعمران"، دراسة وتحقيق محمد عمارة، ص15.
(2) زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، دار المعارف، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 205.
(3) غلفان، مصطفى: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، المدارس للنشر والتوزيع، (د.ط)، 2007، ص 24
(4) حلمي خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي الحديث، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ،(د.ط)، 1995، ص 60
(5) (إبراهيم مصطفى: إحياء النحو ، الطبعة الثانية،(د.ت) القاهرة، (مقدمة)
(6) (حلمي خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي، ص65
(7) (إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، ص 145.
(8) (محمود السعران: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، الإسكندرية، 1962، ص21.
(9) (تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، (د.ت)، ص7
(10) غلفان مصطفى: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، الفصل الأول.
(11) جابر عصفور: النقد الأدبي، دار الكتاب اللبناني، ط1، 2008 ،ص 13.
(12) مندور، محمد : النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر، القاهرة، 1996، ص 6
(13) عيد بلبع: القطيعة المعرفية وسُلطة الجذور، بلنسية، جمهورية مصر العربية، ط1، 2009 ص46.
(14) المسدي، عبد السلام: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1986، ص 12 .
(15) المرجع نفسه: ص 13.
(16) جابر عصفور: النقد الأدبي، ص7.
(17) المراغي، أحمد مصطفى: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط1 ، 1950، ص7.
(18) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د.ت).ص9.
(19) ينظر: بدوي طبانة: البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، دار المنارة، جدة،ط7، 1988،ص7.
(20) علي عشري الزايد: البلاغة العربية تاريخها. مصادرها. ومناهجها .مكتبة الآداب، القاهرة، ط7، 2009 ،ص6و7.
(21) نفسه: ص 109
(22) تمثل هذا النهج في كتابه "مناهج بلاغية "، واعتمدنا على الطبعة الصادرة في سنة 1973 .
(23) البخيتاوي عماد محمد محمود: مناهج البحث البلاغي عند العرب، دراسة في الأسس المعرفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013، ص13.
(24) عيد بلبع: القطيعة المعرفية وسلطة الجذور، ص 43)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530

(25) (إبراهيم عبد العزيز السمري: اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2011، ص220،

(26) صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2002، ص 91

(27) حسام البهنساوي: أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994، ص2.

(28) رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان،رؤية للنشر والتوزيع، 2011 ، ص11 .

(29) حمّادي الصمّود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت،ط4، 2010، ص11و12

(30) المرجع نفسه: ص12

(31) نفسه: ص13

(32) نفسه: ص 14

(33) للإطلاع على الموضوع، ينظر كتاب حمّادي صمود من الصفحة 125 إلى 265

(34) العمري محمد: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، بيروت/ المغرب، ط1، 1999، ص 14.

(35) و (36) المرجع نفسه، ص 10

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/530